غرق نفسي

للكاتب الأمريكي: امبروس بيرس

١٨٤٢ ـ ١٩١٤

في صيف ١٨٧٤ كنت في مهمة عمل في مدينة «ليفر بول» تتعلق بشركة «بنسون وجاريت التجارية» ومقرها نيويورك.

أما فيما يتعلق بي فأنا «ويليام جاريت» وشريكي هو «زيناس برونسون» الذي لقي حتفه العام المنصرم بعد انهيار مؤسستنا إذ إن فؤاد المسكين لم يتحمل الامتياح من مستنقع الذل والحاجة بعد أن ظل يرفل في أردية الترف ردحاً من الزمن.

ما أن أنهيت مهمتي حتى غشاني الوهن والإرهاق من كل جانب فارتأيت أن خير ما يزيل ذلك هو ملازمة البحر في رحلة استجمام طويلة عبر طريق العودة أعبُّ خلالها نسائم الماء والسماء... ويبحر خيالي في زرقة الكون تحيط بي من كل جانب لا يجترح أديمها سوى أسراب النوارس واللقلاق تحلق في آفاق المدى زرافات ووحداناً، وهي تشدو بأعذب الأنغام... رأيت في ذلك كله شفاءً لروحي مما اعتراها من كلل ووهن، ولذا فإني ـ بدلاً من العودة على ظهر إحدى باخرات الركاب الفارهة قد حجزت على متن السفينة الإنجليزية «مورو» والتي لم تكن تتمتع بمزايا خاصة تنعم بها على ركابها الذين لم يزيدوا على اثنين: محدثكم وشابة تصحبها وصيفة زنجية في منتصف العمر. ولما أبديت للوصيفة تعجبي من مرافقتها لها ـ على غير عادة النساء الإنجليزيات ـ أفادت بأن سيدتها الجميلة كانت ابنة لرجل، وزوجته من «كارولاينا الجنوبية» وقد توفيا في يوم واحد بمنزل والد الشابة في «ديفونشير» وكان ما قالته حدثاً غير عادي بالنسبة

لي وخصوصاً حينما علمت عبر ما تلى من حديث معها بأن اسم الرجل هو «ويليام جاريت» وكذا كان اسمى! كنت على علم بأن فرعاً من عائلتي قد استوطن «كارولاينا الجنوبية» فأما التفاصيل التاريخية لذلك فقد عُمّيت عليّ!. في الخامس عشر من شهر «يونيو» أبحرت بنا السفينة «مورو» من مصب نهر «مرسي» وكان على ظهرها بضائع كثيرة قيّمة ابتعتها سابقاً... ولأسابيع عدة تهادت السفينة بنا الهوينى في أحضان بحر هادئ رخاء... أنسام رقراقة عليلة وسماء صافية بلون الفيروز لا تحجبها سحب أو غيوم. أما الربان وكان مدعاة للإعجاب لا أكثر ـ فقد حبانا باليسير من صحبته الا ما كان حول مائدته.

وتوطدت علاقتي بالشابة «جانيت هارفورد» كنا دائماً ـ تقريباً ـ معاً ولما كنت أتمتع بفكر استبطاني يعشق الغوص في دخائل الغير واستشراف بواطنهم فقد جنحت في الغالب إلى محاولة تحليل وتحديد ذلك الشعور الجديد الغريب... الذي سكب في ذاتي ميلاً خفياً هادئاً هادراً غالباً ما دفعني إلى البحث عنها... على أن محاولتي تلك كانت بلا جدوى إذ إني قد توصلت على الأقل إلى قناعة مؤادها أن ذلك ما كان حبّاً!.

ولما أكدت ذلك لنفسي ولأني كنت على يقين من صدقها وإخلاص مشاعرها فقد تجرأت ذات مساء «وأذكر أن ذلك كان في الثالث من شهر يوليو» وسألتها ـ ضاحكاً ـ عما إذا كان في مقدورها مساعدتي على تبديد ما ساورني من شك نفسيّ!.

وبدت ـ لوهله ـ صامتة قد أشاحت بوجهها عني. فداخلني خوف من أن أكون قد تجاوزت حدود اللباقة معها.. وأنني كنت فظاً غليظ القلب على أنها نظرت إليّ فجأة فسمرّت نظرتها علي كأنما اتصلت مقلتاها بعيني عبر جسر من الفولاذ!

بدت كما لو كانت ترنو إليّ ـ لا بتينك العينين ـ ولكن من خلالهما... وعبر مسافة بعيدة بعيدة خلفهما... ولمحت وجوهاً عديدة لنساء ورجال وأطفال بتعابير مألوفة متلاشية... مضمحلة وقد اجتمعت حولها تحاول جاهدة ـ في لهفة

رقيقة دفاقة ـ النظر إليّ عبر حدقتي تلك الشابة. وتلاشت أمام ـ رؤاي ـ المعالم طرّاً! السفينة والمحيط الكبير... وصفحة السماء! ما وعيت شيئاً سوى تلك الأشكال البشرية تبحر في خضمّ ذلك المشهد الرائع الأخاذ، أما ماعدا ذلك فلا.

عندها خيم الظلام عليّ فجأة وعبره وكمن اعتادت عيناه على الرؤية وسط ضبابية عتمةٍ مطبقة... لاح لي مرأى الصاري والشراع وأرجاء السفينة ثانية كانت السيدة «هارفورد» مغمضة العينين وقد استلقت على كرسيها... بدت نائمة وكتابها المفتوح ملقى على حجرها... ودفعتني قوة خفيه لست أدري كنهها إلى إلقاء نظرة على أعلى الصفحة. كان الكتاب نسخةً من تلك المطبوعة النادرة الغريبة: «تأملات دينكر» أما سبّابة الشابة فقد استقرت عند عبارةٍ عن خفايا الروح واستنساخ الأرواح. وفجأة هبت الآنسة «هارفورد» واقفةً تتخللها رجفة خفيفة... كانت الشمس قد غابت في لجة المحيط بعد أن واراها الأفق وتلطخ الحدّ الفاصل بين الماء والسماء بحمرة النجيع المنساب من كبد ذكاء لما تلقت ـ في فؤادها طعنة المساء... على أن الجو ما كان بارداً... ولم تكن هناك ثمة نسمة أو غمامة في السماء ورغم ذلك لم يكن هناك أي أثر للنجوم.

وفجأة علت أصوات لأقدام متسارعة واستدعى أحدُ أفراد الطاقم ـ من أسفل المركب ـ ربّانها الذي ألقى نظرة على مقياس الضغط الجوي قبل أن يصرخ: يا إلهي!.

بعد ساعة تلاشى أمام ناظري خيال الشابة «جانيت هارفورد» يحجبه الظلام والرذاذ... وانتزعته مني تلك الدوامة الرهيبة التي أحدثها غرق السفينة أما أنا فقد غبت عن الوعي على حبال الصاري الطافي الذي ربطت نفسي إليه.

فتحت عينيّ على ضوء مصباح فوجدت نفسي في سرير يحيط به الأثاث المعتاد لغرفة خاصة على متن إحدى البواخر.

وعلى أريكة مقابله جلس رجل ـ بنصف ملابسه استعداداً للنوم ـ يقرأ كتاباً. وعرفت فيه صديقي «جوردون دويل»... ذاك الذي التقيت به يوم الإبحار حينما كان على وشك ركوب سفينة «سيتي أوف براغ» والتي حاول جاهداً إقناعي بمرافقته للإبحار على متنها كذلك.

بعد دقائق تمتمت باسمه فما زاد على أن قال ـ حسناً ـ دون أن يحيد عن الكتاب بنظره.

ـ «دويل» ـ قلت ثانيةً ـ هل أنقذوها؟.

وتلطّف فألقى نظرة عليّ وتبسم لاهياً إذ إنه خالني أسبح في لجج النوم لما أزل!

ـ أنقذوها؟!! من تقصد؟

ـ «جانيت هارفورد»!

وتبدل لهوه فجأةً فاستحال ذهولاً ودهشة وطفق يحدق بصمت فيّ.

ـ «ستخبرني لا حقاً ـ تابعت ـ نعم ستخبرني فيما بعد.

بعد دقيقة سألته: أي سفينةٍ هذه؟.

وحدق «دويل» ثانيةً فيّ قبل أن يقول:

«إنها الباخرة» سيتي أوف براغ «المتجهة» من «ليفر بول» إلى «نيويورك»... وهي معطلة منذ ثلاثة أسابيع لكسر أصاب أحد أعمدتها، أما ركابها فاثنان: السيد «جوردون دويل» ومغفل آخر يدعى السيد: «ويليام جاريت». سافر هذان الراكبان المميزان سوياً لكنهما على وشك الانفصال وذلك أن الأول قد بيّت النية على إلقاء الثاني في عرض المحيط! ـ قال مازحاً ـ.

وانتصبت واقفاً:

ـ «أتعني أني كنت على ظهر هذه السفينة لثلاثة أسابيع خلت؟»

ـ أجل... تقريباً إذ إن اليوم هو الثالث من شهر «يوليو»!

ـ أوقعتُ فريسةً للمرض؟

ـ بل إنك كنت في كامل صحتك واتزانك كمنصب القدر الثلاثي وكنت دقيقاً فيما يختص بمواعيد الوجبات!

ـ يا إلهي! ـ ندت عني شهقة مفاجئة ـ الأمر محير... هناك لغز ما يا «دويل» ـ أرجوك دع المزاح وأخبرني: ألم يجرِ إنقاذي من حطام السفينة «مورو»؟

وتغير وجه «دويل» فجأة... امتقع لونه وتقدم فوضع يده على رُسغي ـ ثم سألني في هدوء: ماذا تعرف عن «جانيت هارفورد»؟

ـ بل أخبرني أنت ـ أولاً ـ عما تعرفه عنها!

وشرع السيد «دويل» يتأملني وهناً كمن يستجمع ما يود قوله ثم اقتعد الأريكة قبل أن يقول:

ولم لا؟ أنا «وجانيت هارفورد» خطيبان ـ قابلتها في لندن منذ عام على أن عائلتها ـ وهي إحدى عوائل «ديفونشير» الثرية قد عارضت ذلك الزواج ولذا فإننا قد قررنا ـ أو قل أننا الآن بصدد ذلك ـ وفي اليوم الذي ركبت وإياك هذه السفينة عبرت «جانيت» وخادمتها الزنجية بجانبنا كيما تبحرا على متن إحدى السفن: «مورو» على وجه التحديد. لقد رَفضَتْ أن تصحبني على متن هذه السفينة خشية أن تلفت الأنظار وتثير الشكوك وأخشى ما أخشاه أن يطول عطل سفينتنا فتصل هي إلى نيويورك قبلنا فلا تدري المسكينة أين تذهب!

وبقيت جائماً دون حراك في سريري... مشدوهاً... مصعوقاً حائراً... بالكاد أتنفس على أنه بدا جلياً أن الموضوع كان شيّقا في نظر «دويل» إذ إنه استطرد قائلاً:

إنها ـ بالمناسبة ـ ابنة لعائلة «هارفورد» بالتبني. لقد لقيت أمها حتفها إثر سقوطها عن ظهر جواد وقضى أبوها نحبه حزناً عليها ولما لم يتقدم أحد للمطالبة بالطفلة تبنتها تلك العائلة وترعرعت الفتاة معتقدة أنها ابنةٌ حقيقيةٌ لهم.

ما هذا الكتاب الذي بين يديك يا «دويل»؟ سألته.

أوه إنه كتاب: «تأملات دينكر». وهو كتاب في الغرابة آية. كان لدى «جانيت» نسختان منه فأعطتني واحداً!

ـ أتريد أن تلقي عليه نظرة؟.

ودون أن يسمع جواباً رمى به إليّ فوقع مفتوحاً وعلى إحدى الصفحات المكشوفة كانت ثمة فقرة عُلِّمت بالقلم ـ وقرأت تلك الفقرة فكدت من هول المفاجأة أفقد وعيي! كانت نفس العبارة التي لمحت سبابة «جانيت» تشير إليها حول خفايا الروح ودعوى استنساخ الأرواح!.

كان لها... أقصد... إن لها ذائقةً مميزة في القراءة ـ كبحت جماح عواطفي وروّضت هياج روحي كيما أستطيع أن أقول له ذلك.

ـ نعم! ـ قال «دويل» وقد يكون في مقدورك الآن فضلاً إفادتي عن سر معرفتك اسمها واسم السفينة التي أقلّتها!

ـ لقد تحدثت أثناء نومك عن ذلك! قلت. بعد أسبوع جرى سحب باخرتنا إلى ميناء «نيويورك» وأما ما كان من أمر «مورو» فإن أحداً لم يسمع عنها خبراً بعد ذلك قطّ!.

❀❀❀

obeikandl.com